

القصر والإفراد في الأدعية النبوية ﷺ في الصحيح المسلم

الدكتور حافظ شفيق الرحمن *

عبدالحالقي وتو**

Abstract

Praying is the holy tradition of the Holy Prophet (P.B.U.H) His prayers are an ample proof of his rhetorical command on the Language. However, purity of language and its comprehensiveness are the salient features of his supplications. Therefore, it is very easy to memorize them by heart. Remembrance of these prayers opens the ways of success in life.

This article deals with the style and diction of the Prophet's prayers and their other literary characteristics. A study has been made of both inwardly and outwardly beauties of his prayers with the help of often quoted and reported supplications. In fact, literary qualities of the Prophet's prayers are the testimonial of his being dynamic rhetorician. Proverbs and prayers reported by him are the unique expression of *hismiracle "Jawam' al Kalim*

Key Words: *Muslim, prayers, rhetoric, supplications, literary characteristics, literary qualities*

الحمد لله رب العالمين، أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً، بحسب المصالح منجماً، جعله على قسمين متشابهة ومحكما، استأثر بالأولية والقدم، ووسم كل شيء بالعدم، أنشأ كتاباً ساطع التبيان،

*الأستاذ المشارك قسم اللغة العربية و آدابها الجامعة الإسلامية بهاولبور

**الباحث بمرحلة الدكتوراة قسم اللغة العربية و آدابها الجامعة الإسلامية بهاولبور

قاطع البرهان، وحيا ناطقاً بينات وحجج، قرآنا عربيا غير ذي عوج، مفتاح كل منفعة دينية وديوية، مصدقا لما سبقه من كتب سماوية.

والصلاة والسلام على معدن البلاغة والفصاحة، ومنبع الجود والسماحة، رسول الله أبي القاسم، ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، ذي اللواء المرفوع في بني لؤي، وذو الفرع المنيف في عبد مناف بن قصي، المثبت بالعصمة، الناطق بالحكمة، الواضح الغرة والتحجيل، المذكور في التوراة والإنجيل، المؤيد بجبريل، وعلى آله، الأطهار، وخلفائه الأبرار، من تزوج الأختان منهم والأصهار، وعلى جميع المهاجرين والأنصار، ثم أما بعد:

الأدعية الماثورة عن النبي ﷺ مظهر من مظاهر النبوة يحتوى أقل عبارته على الروائع الأدبية الكثيرة مثل انطواء الإناء الصغير على البحر الكبير، فكانت عباراتها من جوامع الكلم، التي قل عدد حروفها وكثر كم معانيه المنزهة عن التصنع والتكلف - ونرى من خصائص استعمال المبسوط موضع البسط، و إيقاع المقصور موقع القصر وهجر الغريب الوحشي، واستكاف الهجين السوقي فلم ينطق النبي ﷺ عن عواطفه المرضية إلا قد حفت بالعصمة و شددت بالتأييد الرباني -

و تلك الأدعية النبوية ﷺ هي التي ألقى رسول الله ﷺ عظلال المحبة عليها بالقبول الحسن، تلوح دائما عليها الطلاوة، و جمعت بين المهابة والحلاوة- بأسلوب جيد الإفهام مع قلة أجزاء الكلام لم يسمع الناس كلاما أعم منها نفعاً- ولم يجدوا أصدق منها لفظا ولا أعدل وزناً و أحسن مذهباً، ولا أكرم مطلباً ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح عن معناها، ولا أوضح من فحولها-

وإذا تدبرنا في الأدعية النبوية ﷺ من جهتي ¹ لناعتها اللغوية والبيانية نجد أنها مسددة اللفظ محكمة الوضع، جزلة التركيب، متناسبة الأجزاء في التاليف فهي كلام فخم الجملة، واضح الصلة بين اللفظ والمعنى المراد، و بين اللفظ و ضربية في التاليف والتنسيق، ثم لا نرى فيه حرفاً مضطرباً، ولا كلمة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه ولا نجد في كلمة أختها من المترادفات أتم منه أداء للمعنى -

إنما نجد في الأدعية النبوية ﷺ استعمال جميع أقسام البلاغة والفصاحة والحقائق والمجاز مع سائر الأقسام من الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان والكناية وجميع أنواع البيان والبديع و فيما يلي نتناول جانباً واحداً من تلك الجوانب العديدة وهو جانب علم المعاني و نماذجه في الأدعية النبوية ﷺ

موجز عن علم المعاني:

يُعرف علم المعاني بأنه العلم الذي يبحث في الجملة، وكلّ ما يطرأ عليها من تغيير؛ وذلك من حيث التقديم والتأخير، والحذف والإضافة، والتعريف والتنكير، والقصر والتخصيص، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب، مع مراعاة قواعد النحو، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال-⁽¹⁾

القصر ودلالاته البلاغية في صحيح مسلم:

يعدّ القصر من أساليب التوكيد البلاغية، بل تستطيع القول بأنه أعلاها مرتبة لأنه توكيد فوق توكيد، ففيه تختصر جملتان في جملة واحدة ويتحد معنيان ليؤكد معنى واحداً. وهذا لا يعني أن كل توكيد ينبغي له القصر، فأبي أساليب التوكيد البلاغية إذا اقتضاها السياق كانت أسن وأبلغ، وحاصل معنى القصر راجع إلى تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص نحو قولنا زيد شاعر وقولك: ما زيد منجم بل شاعر، وطرق القصر أربعة - (2)

١ - القصر بإنما وهي أداة القصر المشهورة، نحو قوله تعالى: **(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ)**⁽³⁾ وهنا يتأخر المقصور عليه وجوبا على المقصور.

٢- القصر بالنفي مع الاستثناء، وفيه ترد أداة نفي في سياق الاستثناء لغاية القصر يكون المقصور عليه بعد أداة الاستثناء، نحو قول الشاعر - (4)

وقد علمت. سلمى وجاراتها ما قطرّ الفارس إلا أنا

- القصر... بحروف العطف (لا، بل، لكن) نحو قولنا:

المتنبّي شاعر لا كاتب، وهنا يتقدم المقصور عليه قبل حرف العطف ليستوي المعنى... ما الأرض ثابتة لكن متحركة. ويكون المقصور عليه متأخر بعد حرف العطف لكن... ما الأرض ثابتة بل متحركة. ويكون المقصور عليه متأخرا بعد بل. القصر بتقديم ما حقه التأخير، كقوله تعالى: **(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)**⁽⁵⁾

وأشار سيبويه إمام النحاة إلى القصر فقال: (كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهملانهم ويعنيانهم) ⁽⁶⁾. ويكون التقديم للجار والمجرور أو ضمير النصب المنفصل. و في أدعية المصطفى عليه السلام تتبع البحث أسلوب القصر بصورة الأربع .

فوجد أن القصر موجود بطرقه إلا واحدة وهي القصر بحروف العطف، والأدعية كالأتي وفق طرق القصر السابقة: القصر بإنما : دعاء واحد فقط وردت فيه (إنما) وهو قوله عليه السلام :

(اللَّهُمَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبَبْتُهُ، أَوْ لَعَنْتُهُ، أَوْ جَلَدْتُهُ، فَاجْعَلْهَا لَهُ زَكَاةً وَرَحْمَةً.) (7) وجمهور العلماء على أنها (إن المؤكدة) و (ما الكافة)، رغم أن بعضا منهم قال إنها (ما النافية) حملا لها على النفي والاستثناء في قوله تعالى ((إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ)) (8) و القصد : ما حرم عليكم إلا الميتة والدم. وهذا ضعفه كثيرون. ويقول فيها الجرجاني : " أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب، إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه ، ولكن التعريف بأمر هو مقتضاه "-(9)

.وإنما في الحديث الشريف السابق تحمل في لفظها ومعناها الحصر، فقد قصر عليه السلام ضمير المتكلم (أنا) على البشر، وفي هذا تقييد له بأنه لا يعدو واحدا منهم. ولوقال : بشر أنا، لأفادت معنى التوكيد فقط، ولكن إنما جعلت التوكيد أقوى بتعديه لجمع معينين في معنى واحد : أن الرسول بشر وأن البشر يخطئون.

2-القصر بالنفي مع الاستثناء: دعاءان اثنان وردا على هذه الصورة وهما: -

(اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاعْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (10)

ودعاء الكرب : (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ، وَرَبُّ الْأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) (11)

وطريقة القصر بالنفي والاستثناء تستعمل في المعنى الذي يحتاج لزيادة التوكيد والتقرير ، وفي كلا الحديثين حديث عن التسليم والانقياد والإيمان الذي لا يشوبه شك بقدره الله وتحكمه وقدرته على المغفرة والرحمة، لذا كانت هذه الطريقة أبلغ في جعل الخبر يقينا وإظهار قناعة الداعي وبعده عن أي شك أو تردد . وأدوات النفي كثيرة نحو (ما، لا، لن، ليس) ولكل أداة معنى تؤديه، وجرس خاص بها لا يؤديه غيرها. وفي الدعائين السابقين كانت أداة النفي (لا) وهي أداة الدلالة تتحدد دلالتها بمدخولها، دخلت على الجملة الفعلية في الدعاء الأول ونفت الفعل المضارع وهو نفي ممتد لا ينقطع، أسهم في إبراز المعنى المراد من الدعاء. وفي الثاني دخلت على الجملة الاسمية (لا إله إلا الله) فنفت الجنس وأظهرت الاستغراق، وهذا حالها إذا دخلت على نكرة، وبهذا كانت (لا) مع الاستثناء هي الطريقة الأبلغ لنفي الألوهية عن غير الله وقصرها عليه وحده سبحانه وتعالى . والقصر هنا يراعي صفة الألوهية ومعاني التوحيد، تنزيها لله عن أي شرك له وهذا من باب قصر الصفة على الموصوف قصرًا حقيقًا، لأن الألوهية صفة، لا يمكن ادعاؤها لغير الله .

ودعاء نبينا الكريم يشبه دعاء يونس عليه السلام، إذ نادى ربه مستغفرا :

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) (12)

وإذا كان الخبر في الآية جاء مؤكداً بأن التوكيدية، وأسلوب الحصر، ليظهر يقين يونس عليه السلام وإقراره بذنبه، فإن التكرار لجملة لا إله إلا الله في الدعاء النبوي زاد على التأكيد تأكيداً وضاعفه، ليكون المعنى قويا وجليا لا شك فيه ولا ريبه .

القصر بتقديم ما حقه التأخير، تقديم شبه الجملة (النمط الأكثر شيوعاً في الحديث النبوي، ومثل ذلك قوله عليه

السلام : (بك وضعت جنبي) - - (لك أسلمت) (بك آمنت) (عليك توكلت) (13)

وفي لغة العرب تقديم الجار والمجرور يكون لمزيد من الاختصاص- أن هذا التقديم في الأدعية الشريفة بتقديم شبه الجملة على الفعل، يختصر الكثير من المعاني المتعلقة بالإيمان والربوبية ما كانت لتظهر لو أصر الرسول الكريم الجار والمجرور، فليس التوكل أو الاستسلام هو الذي يورق رسولنا عليه الصلاة والسلام، بل بيان المعبود الذي تتعلق به كل هذه الأحوال فكان التقديم أقوى في ترسيخ التعلق والخضوع.

وتستطيع أن نخلص من هذا إلى أن القصر في الدعاء النبوي مائل نظيره في القرآن الكريم، والعربية، إذ استعملت (إنما) في حديثه -عليه السلام- لتقرير حقيقة معينة، وهي كون الرسول عليه السلام بشراً، وهي إعلان لله وللناس من حوله بأنه إنسان يخطئ ويصيب، ويرضى ويغضب، ويسر ويحزن . والخطاب في الدعاء هنا مائل الآية القرآنية التي تقول : ((قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ)) (14)

وفيها أيضاً تهمة للخطاب بعدها، وتمهيدا لما سيكون بعدها، فكون النبي الأمين بشراً تتنوع حالاته النفسية وتتفاوت ردود فعله، مقدمة حسنة قد تصدر منه بغير قصد أساءة لأحد آذاه وهذه قمة الذكاء اللغوي في سرد التمهيد وإلقاء الخبر وأما النفي والاستثناء ، فأسلوب الجار والمجرور (على متعلقه وهو عرفه الدعاء النبوي واستعمل للمعاني التي احتاج فيها النبي صلوات الله عليه- إلى مزيد من التوكيد والتقرير، فهي تلقاك إلا حين تلقاك النبوة العالية والنعمة الحاسمة، والتعبير السديد لذا جاء القصر في الدعاء النبوي لغاية عظيمة وسامية .

الإفراد في الدعاء النبوي:

عني اللغويون والبلاغيون العرب بالإفراد والجمع، وألفوا فيها المؤلفات، وذكروا النكات البلاغية فيها، ويذكر جلال الدين السيوطي في كتابه الإتقان، أن الأخصف ألف كتابا في الإفراد والجمع، ذكر فيه ما وقع في القرآن مفردا وما وقع جمعا .

وفي الدعاء النبوي شواهد بارزة هنا وهناك، على كلمات جاءت مفردة في دعائه عليه السلام ، ولم ترد جمعا فيه أبدا من مثل (حسنة، نورا، مدهم، صاعهم، قوتا، النار) وهذا الإفراد له دلالة ولا شك، فكلمة حسنة في دعائه عليه السلام : (اللهم آتنا في الدنيا حسنة) (15)

جاءت نكرة من ناحية لتدل على عموم ، كما جاءت مفردة لتدل على الشمول والاحتواء ، فالحسنة يندرج تحتها أي فعل أو أمر حسن، وتبدو بأجزائها واضحة المعالم، ولو كانت جمعا (حسنا)، لقبح المعنى، وظننا أن لكل حسنة نوعا خاصا بها من الثواب والأجر . والعدول إلى المفرد (حسنة) عن الجمع تصرف في الصيغ، وإلباس المفرد معنى الجمع مما يشعر بالكثرة والعظمة، ويمكن أن يعد هذا من الإيجاز أيضا. وكلمة (نورا) في قوله عليه السلام :

(اللهم اجعل في قلبي نورا وفي بصري نورا) (16) يشبه معنى قوله تعالى :

((رَبَّنَا أُنْمِمْ لَنَا نُورَنَا)) (17) فالنور لغة: هو الضوء وسطوعه -18 وهو ما يرينا حقيقة الأشياء. أما المعنى المراد فهو الهداية والحق والتقوى، ومخافة الله ، وهو في عمومه يدل على كل خير، والنور أصل الرؤية والإبصار، وبه يهتدي المرء ويبصر، ولو كانت على الجمع (أنوار) لأشعرت بمعنى الضوء المعروف، فكان إفرادها أقوى في إبراز دلالتها على الهداية والاستقامة.

وكلمة النار في قوله ﷺ : (وقنا عذاب النار) (19) فلفظة النار مفردة بالرجوع إلى أصلها فهي من أصل واحد ومادة واحدة، فالإفراد يناسبها لا الجمع، وهي تشمل كل معاني الهلاك والثبور والغناء ، وهي في إفرادها تشبه إفراد الريح المعنية بالعذاب والهلاك، إذا دعا بها الله على أقوام فتنهم .

أما في قوله ﷺ : -- (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا) (20) ففي إفراد القوت عموم أيضا، حيث يشير إلى كافة أنواع الطعام، لكن بقدر الكفاف، مما يؤمن العيش والبقاء ، فجعل (قوت) مفردة، ولو جمعها لما دلت على القلة، ولظنناها جمع لزيادة .

أولا : علاقات الجمل

يوجد بين الجمل روابط وثيقة، وعلاقات قري ، فهي تنتظم في السياق، فتأتي بالمعنى

المراد وفق نظام محكم . وقد سئل البلاغيون عن البلاغة ما هي؟ فأجابوا بأنها معرفة الفصل من الوصل (21) وقالوا بأن الفصل والوصل فن عظيم، صعب المسالك، دقيق المآخذ، لا يحيط به إلا بليغ فهم، عارف بكلام العرب بطبعه وفطرته وذوقه . وقال الجرجاني بأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد، إلا كمل لسائر معاني البلاغة، وقال :

"اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بمأمنثرة، تستأنف واحدة منها بعد آخر من أسرار البلاغة" (22)

والعطف يفيد الاشتراك في الإعراب، والإشراك في الحكم، والإشراك في المعنى، وقيل إن البلاغة إذا اعتزلتها المعرفة بمواضع الفصل والوصل كانت كاللالي بلا نظام-23. ولا يكون الفصل أو الوصل إلا لإثارة نفوس المخاطبين والتأثير فيهم.

الوصل ... الوصل من وصل الشيء وصلا وصلة، والوصل ضد الهجران (24)

والوصل اصه لاحا:

ربط معنى بمعنى لغرض بلاغي. وأدوات الوصل متعددة، من مثل: حووف العطف، وحروف الاستئناف وكلمات المصاحبة وغيرها , وحروف العطف أقواها لأنها الأولى مرتبة في الربط. إذن تستنتج أن الوصل باختصار عطف الجمل بعضها على بعض، وإحداث علاقة تربطها معا، ويظهر للمتأمل في أحاديث الدعاء أن الوصل فيها كثير، انظر قوله عليه السلام:

(كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ.) (25)

فلسان الداعي يلهج في قرارة نفسه، ومقام الدعاء حار صادق، إذا انطلق الداعي منه وتوجه بطبيعته البشرية الطامعة في رحمة الله خرجت الجمل معطوفة بعضها على بعض، وقد تصل إلى أربع أو خمس جمل كما رأينا. والواو حرف يفيد الاجتماع، وليس أنفع منه أداة للوصل بين كل هذه الأمور، ولم تكن أداة أخرى لتؤدي الغرض ذاته.

وكلما كثرت الحاجات والطلبات وتنوعت، كثر العطف (أي الوصل) في الدعاء ، ومن ذلك قوله عليه السلام : ("اللهم اغسل خ ما ياي بماء الثلج والبرد، ونقّ قلبي من الخ ما ياي كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وباعد بيني وبين خ ما ياي كما باعدت بين المشرق والمغرب.") (26)

فالغسيل والتنقية والمباعدة عن الآثام كلها مطالب متفقة وتدور في معنى واحد، لذا كان العطف بالواو أقوى، ومن بلاغة الوصل أن لكل أداة موضعا لا يصلح لأداة أخرى . ويلاحظ أن العطف أو الوصل هنا بين الجمل الإنشائية، فكلها جمل طلبية مبدوءة بفعل الأمر.

ويكثر العطف في الدعاء النبوي بحرف العطف (الواو)، حتى ليشكل النسبة الأكبر في طرق وصل الجمل بعضهما ببعض، ولم يرد إلا أدعية قليلة كان الوصل فيها بالفاء ، منها قوله عليه السلام (وباعد بيني وبين خطاياي، كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم فإني أعوذ بك من الكسل، والمهرم، والمائم والمغرم)

(فاغفر لي مغفرة من عندك فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) (27)

والفرق بين الواو والفاء أن الأولى تفيد الإشراف في الحكم والاجتماع كما أسلفنا، ومن الضروري أن يكون بين المعطوفين مناسبة، حتى يكون المعنى في الجملة وفقا لمعنى في الأخرى ومضافا له والثانية (أي الفاء) قد تفيد الترتيب والتعقيب، أو التفريع، فكون الله عز وجل قادرا على المباعدة بين المرء وذنبه، فإنه قادر على صون المرء وحمائته من الشرور الدنيوية والأخروية . وفي الدعاء الأول يدعو الرسول ﷺ بأن يعده الله عن خطاياها، ثم يستعيذ من الكسل والمهرم، فوصل الجملتين بالفاء لأن فيها معنى الافتراق على كونها أداة وصل، وهذا من البلاغة والفصاحة-

الفصل...

ومثلما كان الوصل ظاهرة في الدعاء النبوي، كان الفصل أيضا موجودا حيث اقتضى الفصل ولزم وصار قائما انظر قوله عليه السلام : - (اللهم لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن) (28)

فقد فصلت الجملة الثانية عن الأولى ولم تربط معها بحرف رابط، وفي أحيان كثيرة يكون الرابط أقوى من أن يعبر عنه حرف عطف . ويكون التأكيد بشيء يشبه التذييل، أو لعله يكون تعليلا للخبر في الأولى . فقول الرسول عليه الصلاة والسلام (لك الحمد) واتباعه ب (أنت قيم ..) يعني أن الله قيم السموات والأرض،

والمتحكم فيما خلق، والواجب حمده على نعمه، فكأنما الجملة الثانية تعليل للاولى، وفي هذه الحال يكون الفصل من كمال الاتصال-

فعلى الرغم من أن الجملة الثانية لم تعطف على ما قبلها؛ أي أنها مفصولة عنها، إلا أنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسابقتها، فتقديم الحمد والشكر لله متعلق بتقديم الصدقة وإطعام الطعام، ودليل على أن العبد شاكر ربه، لنا دعا الرسول الأمين للرجل بالبركة واليمن، ونبه على ضرورة حمد الزوج الله بإطعام أهله. وظاهر الحال أن الجملة الأولى خبرية في لفظها، بينما الثانية طلبية، ولا يكون الوصل صائباً بين الجملتين المختلفتين، ولكن البلاغة هنا أن الجملة الأولى طلبية لإفادتها معنى الدعاء على كونها خبرية، فهي في معناها تشبه الجملة الثانية، لذا جعلت الجملتان كأن إحداها امتداد لأخرى، والارتباط المعنوي أغنى عن حرف العطف، مع بقاء العلاقة بين الجملتين صحيحة سليمة إذ إن عطف الجملة الإنشائية على الخبرية لا يجوز.

وفي قوله عليه السلام: (اللهم أنجزني ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم ان تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض) (29)

فصلت الجمل بعضها عن بعض، لأن بينها رابطة أقوى من رابطة حرف العطف، وكأنما جاءت الجملة الثانية (اللهم آت ما وعدتني) مؤكدة للجملة الأولى (اللهم أنجزني ما وعدتني). والجملة المؤكدة لما قبلها حقها الفصل، فهي لم تأت بمعنى جديد مغاير للذي قبله، إنما هي جزء من الكلام السابق، لذا كان الفصل أولى . مع حقيقة أن الأولى طلبية، والثانية طلبية، وهذا قد يستدعي الوصل، إلا أن تشابه المعنى الذي يفيد التوكيد استبعد الوصل وهذا أحسن وأجمل . ويقول عليه الصلاة والسلام:

(اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وانت الآخر فليس بعدك شيء، وانت الظاهر فليس فوقك شيء، وانت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين) (30)

يلاحظ في الدعاء السابق كيف أن الوصل كان بحرف العطف (و) بين الجمل التي جمعتها معان مشتركة، وهذه الجمل صح فيها الوصل لأسباب الآتية: بداية المسند إليه في الجمل الأربع واحد وهو ضمير الرفع المنفصل (أنت) ويجمع بين الجملة والأخرى التضاد بين المسندين: (الأول، الآخر) (الظاهر، الباطن). وهذا من البلاغة بمنزلة؛ إذ يحسن أن يكون الخبر عن الثاني بمنزلة الشبيه أو النظير أو النقيض للخبر الأول، وكلما زادت الصلة السابقة ازداد معنى الجمع في (الواو) قوة وظهوراً-(31)

ومثل هذا السياق يرد في عدة مواضع في الدعاء الشريف، نحو قوله عليه السلام:

(اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل) (32)

تستطيع القول إذن: إن الوصل والفصل جاء في الدعاء النبوي على نحو كان له بلاغته وتأثيره في إبراز المعنى وتكثيفه، وهذا مؤشر على بلاغة الرسول الكريم ودليل على أن هذا الذكاء البلاغي الذي يراعي المعنى والمضمون لا يمكن أن يكون إلا للرسول عليه الصلاة والسلام، بلفظه وطرائقه.

وكان الوصل في الدعاء أكثر من الفصل، وأكثر الوصل بحرف العطف أو، وربما يعزى هذا الوصل إلى أن الدعاء فيه لهفة وابتهاال واستسلام لله عز وجل، مما يجعل الكلمات والعبارات تخرج على لسان الداعي دون فصل، ونرى أغلب الوصل في الجمل الإنشائية الطلبية، وأكثر الفصل في جمل التوكيد. (33)

ثانيا : ترتيب الجمل:

إن الجمل بعضها على بعض، أو تأخيرها، أو فصلها أو حذفها، لا يكون إلا لغاية بلاغية، ورغبة من المتكلم في التركيز على معنى دون غيره .

وقد عني البلاغيون العرب بأحوال الجملة، ومن أوائل الذين أشاروا لهذه الأحوال عبد القاهر الجرجاني، الذي تحدث عن النظم وطرائقه، وأشار إلى أن اتحاد اجزاء الكلام، وتداخل بعضها ببعض وتكاثرها مسلك دقيق، ينبع من توخي معاني الكلام ذاته، والعناية بالفروق الدقيقة بين جملة، إذ قال :

"واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط بأولها، وأن تحتاج في الجملة إلى أن نضعها في النفس وضعا واحدا، وأن يكون حالك فيها حال الباني، يضع بيمينه ها هنا في حال ما يضع يساره هناك . وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعها بعد الأولين وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حد يحصره ، وقانون يحيط به فإنه يجيء على وجوه شتى وأحاء مختلفة" (34) وساق الجرجاني أمثلة شعرية كثيرة لبيان حسن النظم وجماله، ومنه قول زياد بن الأعمى - (35)

وتظهر هذه العلامات في الحديث النبوي الشريف بصورة جلية، إذ نرى فيه الجمل يتبع بعضها بعضا، ونراها تتداخل وتلتحم، فكأنها جملة واحدة، ومن خلال دراستنا للدعاء النبوي، حاولنا أن نقف على شيء من سر

ترتيب الجمل، معتمدين على السياق التركيبي .

ونبدأ بقوله عليه السلام :

(اللهم رب السماوات ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، اعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، واغننا من الفقر) (36)

فلقد بدأ عليه السلام بتعظيم الله عز وجل، والاعتراف بربوبيته، وهذا أقرب للاجابة فذكر الله (رب السماوات ورب الأرض) وهذا وفق الترتيب الحقيقي في الواقع، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن السماء أسبق وجوداً من الأرض، ثم يأتي على ذكر الحب والنوى (رب كل شيء خالق الحب والنوى) فبعد الأرض وتكوينها، وتمهيداً لتصبح ملائمة للحياة ومظهرها، يظهر الحب والنوى، رمز الخير والخصب والحياة، وتستقر الحياة وترسخ مقوماتها ليحيا الناس ويتكاثر، ومع استقرار الحياة وتأمين البقاء الجسدي وتحقيق الأمن الغذائي لا بد من أمن نفسي ومجتمعي نفسي، ومجتمعي، فيذكر النبي الأمين الكتب السماوية (التوراة والإنجيل والفرقان) .

فلا شك أن هذه الشرائع السماوية هي التي ترسي دعائم الحياة الإنسانية، وتحفظها بما تنادي به من تعاليم سمحة، وقد جعلها عليه السلام مرتبة ترتيباً زمنياً، فالتوراة أولاً على موسى عليه السلام، والإنجيل على عيسى عليه السلام، وختمها بالقرآن الكريم على خير الأنام محمد عليه السلام، ونلاحظ هنا العلاقة الوثيقة والترتيب الواقعي للجمل والأحداث. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام :

– (الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا ما) –(37)

فالإطعام والسقاية، قبل الكفاية والإيواء ، وهاجس كل إنسان أن يبقى على قيد الحياة بسد رمقه من طعام أو شراب، و من ثم يفكر في مكان يؤويه أو كفاية من شر أو دفع له . ومثله أيضاً قوله عليه أفضل الصلوات والتسليم :

(اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى) –(38)

يبدو الجمل واضحاً، والعلاقة الوثيقة بين الجملتين، إذ بنيت الثانية على عجز الأولى، فكأنما تنظر إلى هرم أساسه الهدى والتقى، فإذا تحققتا عند إنسان فصحت عقيدته واهتدت جوارحه، لا شك أنه سيعفا، ويربأ بنفسه عن المعاصي والآثام، ويستغني عن كل ما يقود إلى ذنب أو خطيئة .
ومنه أيضاً قوله عليه السلام :

(اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةٌ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ) - (39)

فقد دعا الرسول عليه السلام بأن يصلح الله له دينه، لأن صلاح الدين هو سبيل النجاة وحفظ النفس في الدنيا والآخرة، وجاءت جملة (الذي هو عصمة أمري) تعليلاً وتفسيراً لمضمون دعائه. ثم انتقل إلى الجملة الثالثة، وطلب إصلاح الدنيا التي تأتي في المرتبة الثانية بعد صلاح الدين، فهي تتضمن صلاح كل الأمور الدنيوية الأخرى، من صحة وطعام وشراب ورزق، وعلم وغيره ومنه أيضاً دعاؤه عليه السلام للميت:

(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ وَوَسِّعْ مَدْخَلَهُ ، وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالتَّلْجِ وَالبَرْدِ ، وَنَقِّهِ مِنَ الخَايَا كَمَا نَقَّيْتَ التُّوبَ) (40)

فالدعاء للميت بالمغفرة والرحمة أولى وأوجب، فيخف الحساب، ثم يطلب له العفو والعافية، والعفو يكون عن الذنوب، والعافية من كل عذاب، فإذا تأكد الغفران وتحققت الرحمة، كان العفو وكانت العافية، وبهذا يصار إلى إكرام النزل وتحسين الدار وحسن الإيواء.

وانظر الترتيب المنطقي في قوله: (واغسله بالماء، والتلج والبرد، ونقه من الخطايا) فالغسيل فيه شمول لعموم الجسد (عموم الذنوب) فيغسل حتى لا يبقى إلا القليل القليل، ومادة الغسل: الماء والتلج والبرد، تقضي على كل شائبة، لذا قدم الغسيل هنا، ثم تكون التنقية شيئاً فشيئاً حتى يجلو جسد-

النتائج والتوصيات:

الحمد لله رب العالمين، الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تمحى السيئات، وبمئنته تزداد الحسنات، وتقبل الله هذه الصفحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المخلوقات، وسيد السادات، وعلى آله، وصحبه أجمعين. أما بعد:

فبعد رحلة البحث المتواضعة، وجولتنا مع احاديث الدعاء، ترسو السفينة بعد طول على مرفأ العودة، على أمل بمزيد من الدراسات البلاغية النبوية، التي يكتنفها السحر والجمال، فهي من قول سيد البشر، الذي لا ينطق عن الهوى.

فقد وصلت إلى نتيجة البحث، وما زال الإحساس بلذة البدايات يرافقني، وما زال الترقب، والشعور بالنقص يغزو أفكاري، كم أعجب الآن ممن كان يفرح لأنه أنهى بحثه، لأنني أشعر بمزيد من التوثب المتوتر، والحاجة

للانقضاء من جديد على البحث ؛ لأكمل جملة هنا ، وعبارة هناك . كما يصعب الجزم بالفرح عند انتهاء أي بحث ، فالبحث يحث على مزيد من البحث ، والترقب مزيد من الترقب ، والانتظار .

التوصيات:

أنصح الباحثين بالتوجه إلى دراسة أحاديث الدعاء وذلك لقلة الدراسات البلاغية ، واللغوية المتعلقة بها ، وأخيراً وليس بآخر أقول: اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا.

الهوامش

- 1- شيماء، مُجد كاظم الزبيدي (3-4-2017)، "علم المعاني"، www.uobabylon.edu.iq، اطّلع عليه بتاريخ 30-4-2019. بتصرّف.
- 2- ديوان طرفة بن العبد (٢٠٠٢) شرح مهدي مُجد ناصر الدين، ط3، دار الكتب العلمية بيروت ص3٣
- 3- البقرة: ١٧٣
- 4- السكاكي ،يوسف بن أبي بكر بن مُجد بن علي، مفتاح العلوم، المحقق: نعيم زرزور ، ط ١٤٠٧ هـ ، دار الكتب العلمية بيروت ص 257.
- 5- الفاتحة، آية 4.
- 6- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن مُجد النحوي أبو بكر دلائل الإعجاز، المحقق: محمود مُجد شاكر أبو فهر ،المكتبة المدني قاهره ص 107-
- 7- النيسابوري: أبو الحسن مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم، المكتبة البشرية كراتشي ، باكستان، ج 8 ، ص 352.
- 8- البقرة رقم الآية: ١٧٣
- 9- دلائل الإعجاز ص 354.
- 10- صحيح مسلم، رقم الحديث، 4876
- 11- أيضاً، رقم. 4909.
- 12- الأنبياء آية 87
- 13- صحيح مسلم ، رقم الحديث 46
- 14- فصلت، آية 6.
- 15- مسلم ، رقم الحديث 634
- 16- صحيح مسلم ، رقم الحديث 241
- 17- التحريم، آية 8.
- 18- المعجم الوسيط مادة نور.
- 19- صحيح مسلم ، رقم الحديث 1563
- 20- صحيح مسلم ، رقم الحديث 46384

- 21- العسكري، أبو هلال (1986)، الصناعتين، تحقيق محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ص 438
- 22- دلائل الإعجاز /ص 222 .
- 23- الصناعتين ص 438 .
- 24- اللسان، مادة وصل.
- 25- صحيح مسلم ، رقم الحديث 41
- 26- صحيح مسلم ، رقم الحديث 413
- 27- صحيح مسلم ، رقم الحديث 1153
- 28- صحيح مسلم ، رقم الحديث 415
- 29- صحيح مسلم ، رقم الحديث 1563
- 30- [صحيح مسلم ، رقم الحديث 15634
- 31- دلائل الإعجاز /ص 222 .
- 32- صحيح مسلم ، رقم الحديث 15634
- 33- دلائل الإعجاز ص 226
- 34- دلائل الإعجاز، ص 93
- 35- المصدر نفسه، ص 96. زياد بن سليمان بن الأعجم من فحول الشعراء في عصر بني أمية، لقب بالأعجم لعجمة كانت في لسانه، قال هذا البيت في قصيدة له يرد فيها على الفرزدق حين سبه وسب قومه. أنظر الأغاني 392/15.
- 36- صحيح مسلم ، رقم الحديث 8634
- 37- صحيح مسلم ، رقم الحديث 1234
- 38- صحيح مسلم ، رقم الحديث 352
- 39- صحيح مسلم ، رقم الحديث 4897
- 40- صحيح مسلم : رقم الحديث 1600 المكتبة الشاملة